محمد علي قطب

الأَمِيرُ وَالشَّاعِر

سِلسلة بخلاء الجاحظ

للفتيان



دار القلم

ص.ب ٣٨٧٤

بيروت - لبنان

الجاحظ : أديب العربية بلا منازع ، وسيد الكلمة غرف من بحر علم الأوائل ، واطلع على الكثير ، وحفظ حفظاً هائلاً حتى لكأنه خزانة علم ومعرفة .

كان ذكي الفؤاد لماحاً ، خفيف الروح ، حلو الدُّعابة ، حاضر البديهة سريع الخاطر .

قلمه كأنه ريشة رسام فنّان مبدع ، يرسمُ الأشخاص بدقة متناهية ، في وجوههم وأشكالهم وتحركاتهم وانفعالاتهم ودخائل نفوسهم فلا يستعصي عليه أحد ...

ولقد اتخذ من نقيصة البخل عند بعض الناس مادة لسخرية وتندر فجلّى وأبدع ...

بينما أنت تقرأ قصة بخيل على لسان "الجاحظ" وقلمه تحسُّ ان كل كلمة أو عبارة تقطر نقداً لاذعاً مريراً . ثم تنعكس على صفحة قلبك ونفسك ضحكة ماتلبث أن تظهر على فمك ابتسامة .. ، أو قهقهة يضج بها صدرك ...

كانت مدينة "مرو" بالنسبة له مسرح دراسة وميدان اختبار فركز على أهلها مجهرهُ وريشته وقلمه ، فأثرى المكتبة العربية بتراث من الأدب الرفيع .

ونحن - من خلال هذه القصص - نزوّي لك من جديد طرفاً من طرفه ، لعل فيها الزاد الروحي والفكري الذي يلزمك .

دار القلم

حكايات "بخلاء الجاحظ" - للفتيان

الأميرُ والشاعِرُ

مُحَمَّد علي قُطُب

دار القلم
ص.ب ٣٨٧٤
بيروت - لبنان

لدار القلم للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها احمد اكرم الطباع

بيروت - لبنان - ص.ب: ٣٨٧٤

الطبعة الاولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

بُنَيَّ العزيز

لقد روى لنا «الجاحِظُ» هذه الْقِصَّة في كتابِهِ: [الْبُخلاء]، كنادِرَةٍ طريفة، تَسْتَدْعي التوقّف والتأمُّلُ والنَّظَر. . . والاعْتبار كذلك.

وأَوْلى بها - يا عزيزي - أنْ تُدْرج في باب (الْحِرْص) وليس في باب (الْبُخْل)، من حَيْثُ هَدَفها التَّرْبويّ والتَّقْويم والسُّلوكيّ لِلْأَفْراد سواء في حياتهم الخاصّة والعامّة.

و «الجاحظ» - يا عزيزي - يُدْرِكُ هذا المعنى، ولا شك، إلاّ أنَّه يَهْدف من خلال الرِّواية إضْحاكنا. . .

وهذا دَأْبُهُ أبداً في بيان الأَدْواء الاجتماعيّة، يصوغها في قالبٍ من السُّخْرية، لِيجعْلها مُسْتساغَةً مقبولة، (مَهْضومة). . .

في مَجْلس الحُكْم

يُحْكى أنَّ أحَدَ وُلاة إحْدى مقاطعاتِ بلاد «فارس» كان ذات يَوْمٍ في ديوانِ الإمارة، مُحْتَجِباً عن الناس، بسبب شؤونِهِ الخاصَّة، وقضاياهُ الشخصيَّة. . .، يفكّر في تعقيداتها. . . وفي طُرق مُعالجتها. . .

وقد بَلَغَ مِنْه الجهْد والتّعب مَبْلغه!!!

ooo

ضَجَّةٌ عند الباب

ثم سَمِع ضجيجاً عند الباب، وتصايُحاً. . .، كان حاجِبُهُ أحَد أطْرافِهِ. . .

فنادى الحاجبَ مُسْتَفْسِراً عن سبب هذه الضَّجَّة التي أقْلَقَتْهُ وزادَتْه غضباً، فقال الحاجب:

ـ هناك رَجُل بالباب، يدَّعي بأنّه شاعر، ويقول بأنه نَظَم قصيدَةً في مَدْحِكَ وَيُريدُ أنْ ينْشدها بَيْن يَدَيْك. . .، فَمَنَعْتُهُ بناءً على رغبة الأمير بالاحْتجاب في هذا اليوْم. . .، فأصَرَّ على الدُّخول، وعلا صَوْتَهُ. . !

ooo



كان مجتمعاً عن الناس. . . ينكر في تعقيدات مشاكل الناس وفي طرق معالجتها.



نأصرّ على الدخول، وعلا صوته . . !

التَّرْويحُ عن النَّفْس

كـان الأمير (الـوالي) يستمع الى حـاجِبه وهُـوَ يُبْعِدُ من أمامِهِ القرْطاس والْمِـداد(١) . . . وقد شعـر بالتعب الشـديد، وفكَّر قليلاً، ثم قال بعد أن تَمطّى وتَنَهَّد:

ـ دَعْـهُ يَـدْخُـلُ ـ أيها الحـاجب ـ فَلَعَـلَّ في لقـاء هـذا الشّـاعر والاستمـاع إليْه بَعْض التـرويح عن النَّفْس وإذْهـاب الضّجَر.

هاتِ ما عِنْدَك

فلمّـا سُمِعَ للشـاعر بالدُّخـول، أعـاد تـرتيب هِنْـدامـه وقيـافتـه، وعـدل من وَضْـع عمـامتـه، ثم نَـظر شَـزْراً الى الحـاجب، ودَخَـلَ على الأمير (الـوالي) تَـزْهُـواً بنَفْسِـه، مُتَبَخْتراً في مِشْيَتِهِ كأنّه الطاووس وقد نَفَش ريشه . . .

ثم سلَّم وَأحْسَنَ التحيَّة . . .

فقال له الأمير:

ـ لقـد عَرَفْتُ بِـأنك نَـظَمْتَ في مَدْحنا قصيدة، وتـريدُ إنشادها أمامنا، فهاتِ ما عِنْدك . . .

---

(١) الأوراق والحبْر.

طَرَب الشاعر مِنْ نَفْسِهِ

وَأَخَذَ الشاعر في إنْشاد القصيدة . . .

وكـان يترنّـح مع كُـلّ بَيْتٍ من أَبْياتهـا . . ، ويتمايـل مع كُل مَعْنىً من معانيها، حتى أتى على آخرها . . .

وكان قد أجادَ المديح للوالي مُمَجّداً سَجـاياهُ وأَخْـلاقهُ من جودٍ وكرَم ومـروءَةٍ ونَجْدَةٍ . . . ، والـوالي في أثناء ذلـك يستمع ويُبْدي الإعجاب .

فلما فرغ وآنْتهى ، قال لهُ الوالي :

ـ قَدْ أَحْسَنْتَ وأَجَدْتَ .

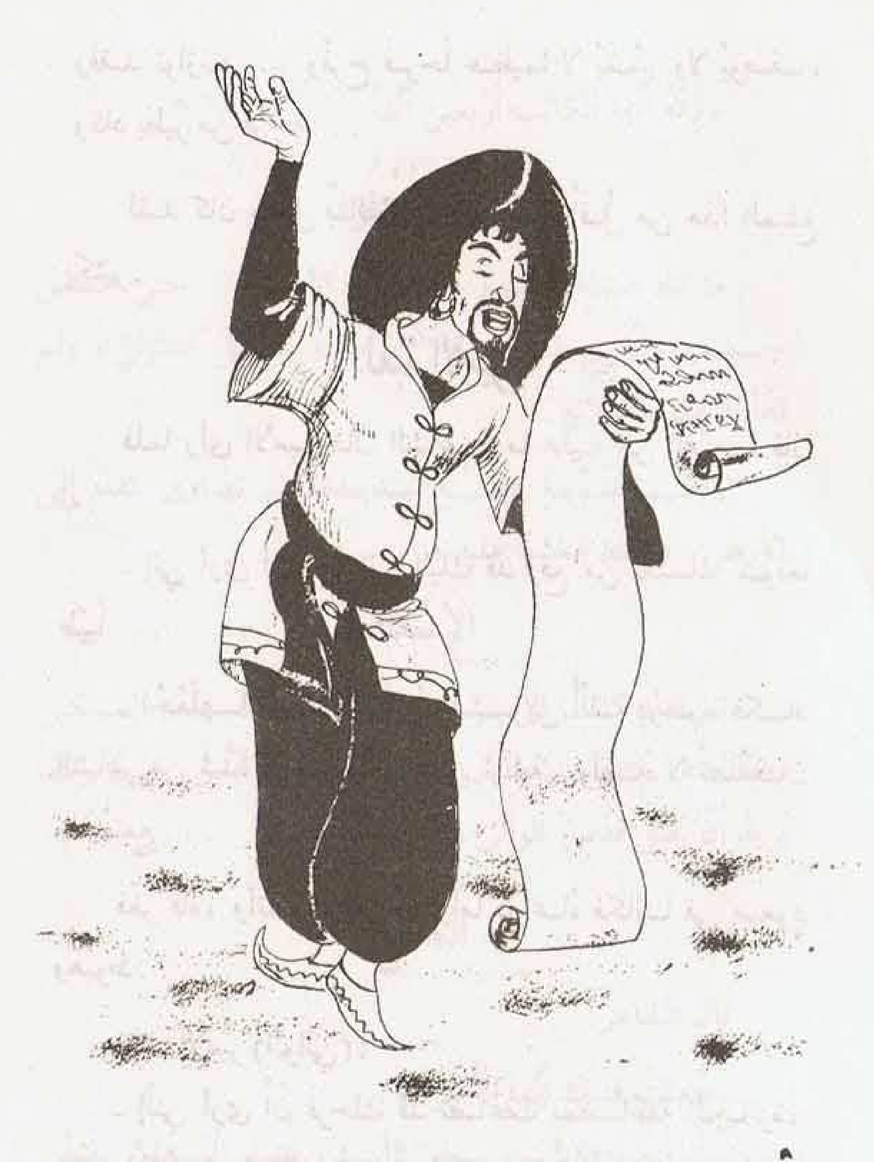
فَفَـرِح الشاعـر وسُرَّ، ثُمّ شَمَـخَ بِأَنْفِـهِ، وَحرَّ بيَـدِهِ على شارِبه ولِحْيَتِهِ .

الجائزةُ السَّنِيَّة

وآلْتَفَتَ الأمير الى كاتبه قائلاً له :

ـ اكْتُبْ له من عطايانا عشـرة آلاف دِرْهم جزاءَ مـا أَبْدَع وَأَحسن . . .

هُنا . . . وحتى تلْك اللحظة كان الشّاعـر يُبْدي تمـاسُكاً وَغُروراً، فلما سَمِـع بالعشـرة آلاف دِرْهم اهْتَزَّ وآضْـطـرب،



وكان يترنح مع كل بيت من أبياتها ـ.

وفقد توازنه. . . وفَرِح فَرَحاً عظيما لا يُقَدَّر ولا يُوصَف، وكاد يطيرُ من فَرَحِهِ. . .

لقد كان يأمل بالقليل، ويُرْضيه أقَلّ من هذا المبلغ بكثير.

لُعْبَةُ الأمير

فلما رأى الأمير حال الشاعر ،ما عليْه من الْفَرْحة قال له:

ـ إني أرى أن إحساني إليْك قد وَقَعَ من نَفْسِكَ مَوْقعاً طيّباً. . .

ـ اجْعَلْها أيُّها الكاتِبُ عشرين ألْفَ دِرْهم. فكاد الشاعر من شِدَّة فَرَحِهِ يَخْرُجُ من ثيابه، وأذناهُ لا تُصَدِّقانِ ما يَسْمع. . .

فَغَرَ فاهُ، واتَّسَعَتْ عيناهُ، وأما ذراعاهُ فكانتا في صعودٍ وهُبُوط. . .

فقال الأمير (الوالي):

ـ إنّني أرى أنّ فَرَحك قد تضاعَفَ بمضاعَفَةِ الجائزة، وإنّي لأقدّر قيمة ذلك في نَفْسك، فلا أُضَيِّعُ عَلَيْك فُرْصَةَ هذا الْفَرَح. . .

ـ زِدْهُ أيُّها الكاتب أرْبعين ألْفاً. . .

نَوْبَةُ الْجُنُون

ما كاد الشاعر يَسْمع ما أَمَرَ به الأمير. . . حتى انْتَفَض جسمه، وانْفَرَج فمه، وعلا ضحكه بِشَكْل جنونيّ، ولم تَعُدْ قدماه تَحْملانِه. .

وأُصيب بنَوْبةٍ عصبيَّةٍ شديدة، ثم تهاوى بثقله الى الأرض، وسقط مغشيّاً عليه.

الإسْعاف

ثم قام كاتبُ الأمير وحاجِبُه بإسعاف هذا المسكين ومعالجته، بالماءِ والطيب، حتى اسْتعادَ وَعْيَهُ، فَهَبَّ واقفاً يُريدُ أنْ يَقَبِّل قَدَمِيْ الوالي، فَمَنَعَهُ من ذلك.

المديح

قال الشاعر:

ـ جُعلتُ فِداكَ أيُّها الأمير، . . .

أنْتَ رَجُل كريم، سخيّ الْيَد، كثير الْبَذل، تقدّر الأَدَب والأُدباء، والشّعْر والشعراء،

وأنا أعْلَم أنّك كُلّما رأيْتَني ازْدَدْت فَرَحاً زِدْتني عطاءً،

وضاعفْتَ لي في الجائزة. . .

وإنَّه لَمِنْ قِلَّةِ الشُّكْر وانْعِدام الوفاء أنْ لا أكْتفي بهذا القَدْر مِنْك.

الدُّعاء

ثم دعا للأمير فقال:

ـ أطال الله عُمرك، ومدَّ في أعْوام حياتِك، وثَبَّت سُلْطانَك، وَألْهَمَك السَّداد والرَّشاد، وقوّاك على عدوِّك، وجَعَلَك دائماً وأبَداً ملاذاً لِلْمَحْرومين والسائلين وأصْحاب الحاجة؛ وَعَوْناً لَهُمْ على قَسْوة الأيّام وشِدَّة الدَّهر.

ثم سَلَّم وانْصَرَف.

بيْن الأمير وكاتبه

وما كاد يغلق الباب ويُوَلّي ظَهْره حتى انْفَجَرَ الأمير ضاحكاً وقد زال عَنْه الهَمّ والكَدَر، ونَسِيَ ما كان به من متاعِبَ وهُموم.

وهنا ارْتَسَمَتْ علاماتُ الدهشة والاستغراب على وجْه الكاتب، فالتَفَتَ إلى الأمير قائلاً، والتعجُّب يَعْقد لسانه، ويَتَعثَّر بالكلمات:

ـ سُبْحان الله يا موْلاي!! شُوَيْعرٌ تافِهٌ، قَدْ قال بَعْض الكلام. . . المعاد المكرَّر. .، يرضى بالقليل القليل ـ فلَوْ أعْطيْتَهُ أربعين دِرْهماً لَشكرَ وانصرف راضياً ـ تَأمُرُ بأربعين

ألْف دِرْهم. . . هذا شيْء عُجاب. . .

والحقيقة أن يَدي كانَتْ تَرْتجف وهي تكْتُب ما كُنْت تأمُرُني به، ولا سبيل إلى مُراجعتك فيما امَرْت وأمْلَيْت.

ثَوْرةُ غضَب الأمير

وَتَغيَّر وَجْه الأمير. . .

وعاد إليه وُجُومُهُ. .

وظَهَرَ الْغَضَبُ في عينَيْه. . .

ثم قال للكاتب:

ـ ويْلك. . .

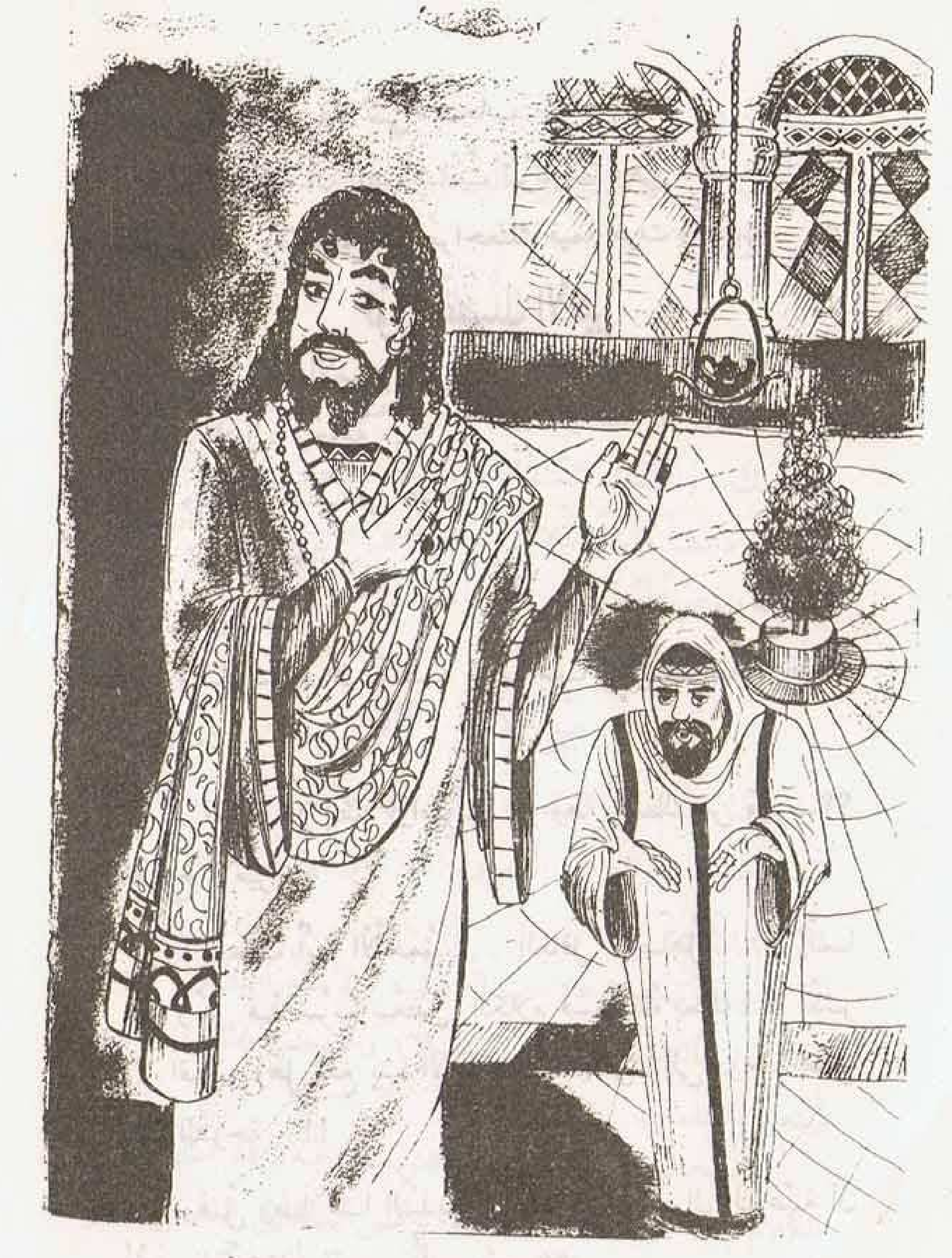
وهل تَنْوي أنْ تُعْطيه شَيْئاً مِمّا أمَرْتُك به؟؟ فقال الكاتب:

ـ لا بُدّ من إنْفاذِ أوامِرك. . . وهل هناك من مَهْرب؟؟

فَصَرخ الأمير:

ـ وَيْحكَ أيُّها الأَحْمَقُ. . . الغافلُ الجاهلُ. . .، إنّما هذا رجُلٌ قَدْ سَرَّنا ببعْض الكلام فَسرَرْناه بِمثْلِه، لا أكْثرَ ولا أقَلّ، وهَلْ بَلَغَ بنا الإسْراف والجنون إلى دَرَجةٍ مثل هذه الدَّرجة. .!!

وهَلْ وَصَلَ بنا التَّبْذير في أموالنا وأمْوال الرعيّة أن نُكْرِم دَعِيّاً كاذباً بأرْبعين ألْف دِرْهم؟؟



إياك أن تعطي هذا الكاذب المنافق شيئاً . .

اللافتراء

ألم تَسْمَعْ قَوْلَهُ وٱفْتراءَه ونِفَاقَهُ في الأوصاف أغْدَقَها عليَّ زُوراً وبُهْتاناً؟؟

فهُو حين زعم أني أحْسن من القمر عجالاً، وبهاءً وضياءً، وأشَدّ من الأسد قُوَّةً وشكيمةً وعَزْماً، وأنّ لساني أقْطعُ من السَّيْف حدّاً، وَأصْلب من الرمْح نُفُوذاً، وأنّ أوامري أنْفَذُ من السّنان. . .، جَعَلَ في يدي من كل ما ذكر شيئاً أرْجع به إلى بَيْتي وأهْلي.

كلام في كلام

ألَسْنا نَعْلَمُ عِلْم اليقين أنّه كَذَبَ وٱفْتَرى، وقال بما لَيْس هو حقّ وصِدْق. . .، ولكنّه سَرَّنا حين كَذَبَ لنا - (ولَمْ نُصَدِّقْه) -، فَنَحْنُ أيها الكاتب نسرُّهُ أيضاً بالقَوْل والكلمة، فنأمُرُ له بالجوائز السنيَّة والأمْوالِ الوفيرة، وإن كان كذِباً، دُون أن نبلّغه شيئاً.

فالأمْر كُلّه لا يَعدو أنّ يكونَ كَذِباً. . . جزاؤه الكذب، وكلام يقابله الكلام، وقوْلٌ بقول.

أما أنْ يكون عقاب الكذب ثواباً صادِقاً، أوْ يكون الفعْل مقابل القَوْل. . !! فَتِلْك لَعَمْري هي الحماقَةُ بعَيْنها. . . والخُسران المبين.

○○○

انْصِرافُ الكاتب وطَرْدُ الشاعر

ثم قال الأمير لكاتبه:

ـ انْهَضْ أَرْشَدَكَ الله وهداك، مُنْصَرِفاً إلى دارِكَ فقد كفاني الْيَوْم ما لقيتُ من هُمُوم الْعَمَل، وإيّاك إيّاك أنْ تُعْطي هذا الكَاذب المنافق شيْئاً إن جاءك غداً...، بل آطْرُدْهُ شَرَّ طَرْدَةٍ، ولَقِّنْه دَرْساً في الصِّدْق لا يَنْساهُ أبداً...

وآنصرف الكاتبُ إلى دارِهِ، يحدِّثُ نَفْسه في الطريق، وبِصَوْتٍ عالٍ (مُتَحيّراً مُتعجّباً)...

وكان كُلُّ من رآه يَظُنُّ به جُنوناً وخَبُلاً...

ولمّا كان في بَعْض الطريق، لَقِيَهُ أَحَدُ معارِفِه فَسَلَّم عَلَيْه فَلَمْ يَرُدَّ وظَلَّ سائراً ماضياً في شرُوده، فآسْتَوْقفه صديقُه وآسْتَوْضحه عمّا بِهِ!!!

فآسْتَدْرك الكاتب وتَنَبَّه وعاوَدَهُ بَعْضُ الصّفاء، ثم حكى لصاحبه عن شأْن الأمير والشاعر بالتَّفصيل، فقال الصَّديق:

ـ لا تَعْجَبْ ولا تَنْدهِشْ فإنَّ لَكَ عندي من الحديث ما هُوَ أغْرَب وأعْجب، وسأرْويه لك في المساء عِنْدما أزُورك لِنَتسامَرَ،

ثم آفْتَرَقا على أمَل اللقاء بعد العشاء.

ο ο ο

محمد علي قطب

الأمير والشاعر

سلسلة بخلاء الجاحظ
للفتيان

